مساهمات ندوة العلماء في الشعر العربي

بلال أحمد شاه
الباحث في الدكتوراه
جامعة دلهي، الهند.
bilalnabishah99@gmail.com

الملخص

من الحقائق المسلّمة أن جامعة ندوة العلماء لكناؤ، الهند، أنجبت عظماء عباقرة وفصحاء. وقامت بأعمال جليلة ومآثر علمية عظيمة في كل ميادين العلم والمعرفة. ولعبت دورا هاما في جميع الفنون الإسلامية والأدبية. وزينوا المكتبات الإسلامية والأدبية بكتبهم القيمة ومصنفاتهم الفريدة وبحوثهم الغالية. وبجانب هذا وذاك كان أبناء ندوة العلماء معظمهم قادرون على قرض الشعر العربي، والبعض منهم فاقوا في صناعته، وزينوا الشعر العربي بروعة قرضهم وإبداعهم.

ويستحق هؤلاء دراسة مستفيضة في أشعارهم، ونكتفي هنا بذكر تاريخ بثلاثة منهم: العلامة السيد سليمان الندوي، والأستاذ محمد ناظم الندوي، والأستاذ عبد الرحمن الكاشغري الندوي.

الكلمات المفتاحية

ندوة العلماء، الأدب، الشعر العربي، الندوي، مآثر علمية، الفنون الأدبية، الهند، أعمال الجليلة.

١- العلامة السيد سليمان الندوي

والعلامة السيد سليمان الندوي صاحب أشعار رائعة راقية في اللغات العربية والأردية والفارسية، ولكن قلّما يعرف مكانته في الشعر لأنه كان في آن واحد عالما ومحدثا وفقيها وأديبا وسياسيا ومؤرخا وصحافيا ناقدا وكاتبا ماهرا وشاعرا وقاضيا حكيما.

يقول الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي: "ووجدنا من اعتناء العلامة السيد سليمان الندوي بالأدب العربي بالشعر العربي، فقد نظم الشعر في موضوعات مختلفة، ويدل هذا الشعر على إرهاف حسه وحسن خياله وحبه للفضائل والحكمة، وقد تجلت في شعره القوة والإجادة والتعبير الطبعي الجميل، مع أنه نظم الشعر العربي بأسلوب يتصف بالتعبير الطبعي الجميل قلما يتأتى لرجل لم ينشأ في جوّ عربي ولم يطل أو يتكرر. واختلاطه برجال اللغة الأقحاح ولكن الاهتمام بدراسة النصوص الأدبية البليغة مما أنتجها أقلام العربي الفصحاء قد يصبح بديلا من ذالك، وذالك الذي كان في سليقة العلامة الندوي الأدبية"[١]

ولد السيد سليمان الندوي بقرية دسنة، بيهار ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٤م. وتلقى دروسه الابتدائية من القرية. ثم تعلم الفارسية واللغة العربية وآدابها. ثم التحق بدار العلوم التابعة لندوة العلماء لكناؤ عام ١٣١٨هـ/ ١٩٠١م، وقرأ على أساتذتها البارعين وصاحب العلامة شبلي النعماني، وكان العلامة شبلي النعماني يشجع الطلاب على تعليم اللغة العربية والصحف والمجلات. فزاده تحقيقا في اللغة العربية، وحين عقدت حفلة تخريج الدفعة الأولى من دار العلوم التابعة لندوة العلماء سنة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م. خطب عربية ارتجالية وهزت بمجامع القلوب، فدهش العلماء من خطبته، وقام العلامة شبلي رحمه الله وخلع عمامته ووضعه على رأسه إظهارا لفرحة وكشهادة على درجة العليا. وقال السيد وهو يتحدث عن ذكرياته "أصبحت هذه

---

[١] .الدكتور محمد أكرم الندوي، السيد سليمان الندوي أمير علماء الهند في عصره ، ١٩٩٨م.

العمامة مفخرة له طول حياته".

وقد منحه جامعة علي كراه الإسلامية الدكتوراه الفخرية في الآداب عام ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م، اعترافا بمكانته العلمية وعلو كعبه في العلوم والآداب.[٢]

لما عين العلامة السيد سليمان الندوي أستاذا في ندوة العلماء اعتنى بالعربية وقام بدوره في إصلاح المناهج التعليمية فيها تابعا لخطوات شبلي النعماني، الذي هو أول مصلح لنظام التعليم في دار العلوم. وسعى بين الطلاب بالتوجيهات التربوية تنفعهم في مستقبلهم. ولذا برز من بينهم العلماء المفكرون والكتاب البارزون والشعراء في جميع مجالات العلوم. ويقول الأستاذ أبو الحسن علي الحسني الندوي: كان من مزايا شخصيته الجامعية الشمول في المعرفة والبحث.

ويقول عنه شاعر الإسلام محمد إقبال "يتبوأ السيد سليمان الندوي اليوم أعلى مدارج حياتنا العلمية، إنه ليس مجرد عالم، بل هو أمير للعلماء، وليس بكاتب فحسب. بل إنه إمام الكتاب والمؤلفين، إن شخصه بحر للعلوم والمحاسن تخرج منه مئات من الأنهار وتستقى منه ألوف من المزارع اليابسة.

مساهمته في الشعر العربي

إن المتأمل عن مساهمات السيد سليمان الندوي يرى أن له دورا فعالا في كل المجالات الأدبية في النثر والشعر. وله شعر رائع في اللغة العربية والأردية والفارسية يتميز بالليونة والسذاجة والعذوبة.

ونذكر هنا نماذج من شعره الجميل نشرها في مجلة "الضياء" في حلقات وسماها "درر غرر" فمنها رباعيات، وقصائد حكمة ووصف وتصوير. وكان ينظم في المناسبات المختلفة بصورة ارتجالية. ومع ذالك لم ينشر شعره لفترة من الزمن، ولما ألح عليه أصدقاؤه نشره في مجلة الضياء.

ومن شعره الرائع وهو يصف الشمس عند مغيبتها:

كأنما الشفق الممتد في الأفق　　خمر معتقة شجت لمغتبق

خمر لعتقها في أعلى همالية　　شجت بماء غمام هامر غدق

كف الطبيعة تسقى الناس أكؤسها　　ويل لمن هذه الصهباء لم يذق

تحسو القلوب حمياها إذا نظرت　　إلى السماء بأقداح من الحدق

والطير تشربها حين تروح إلى　　أوكارها صافرات السجع في حلق

والريح سائرة في روضة أنف　　تهدي السرور إلى حوباء منتشق

دن من القهوة الصهباء في الأفق　　والكأس تطفو به لا الشمس في الشفق

بل إنه برقع فإن له شية　　والشمس وجه حبيب بالحجاب يقي

بل إنما الشمس للصواخ بوتقة　　قد ذاب عسجدها وانشج في طرق

بل إنما الشمس من إعمارنا قتلت　　يوما فسال دم جار من العنق

فذالك الشفق المحمر من دمه　　وقبره ليله المستور بالفسق

يقول الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي في تحليله لهذه الأبيات: ترى المعاني الطريفة في هذه القصيدة، كيف يشبه صورا عديدة لمنظر الشمس عند غروبها بأشياء وأحوال تحمل مشاعر طبيعية وخواطر رائعة من الإحساس الرقيق. يشبه الشفق الممتد في الأفق بالخمر المعتق في أعلى همالايا التي كان الشفق قد امتد عليها.

---

[٢] . نزهة الخواطر، عبد الحي الحسني، ٨/١٦٥

ويذكر شرب الخمر بأقداح من الحدق، لأن شرب الخمر الشفق لا يمكن إلا بالنظر من خلال حدق العيون، ويشبه والشفق في بيت آخر من الشعر ببرقع أحمر يختفي فيه وجه الحبيب وهو وجه الشمس.

ثم يشبه غيبة الشمس في الأفق تاركة منها شفقا ممتدا. كأن الشمس قتلت من أعمار الإنسان يوما واحدا. فخرجت الدماء من عنق هذا، وانتشرت فكان منها الشفق وغابت الشمس بعده في القبر، وقبرها هو الليل الذي أتى بعد غروب الشفق.[٣]

وأشعاره تنطق بقدرته الشعرية الفائقة جامعا البدائع والخيال والعواطف والوجدان التي تجعلها في عداد الشعراء المفلقين.

٢- الأستاذ محمد ناظم الندوي

والشاعر الآخر الذي أثرى اللغة العربية بشعره هو الأستاذ الجليل محمد ناظم الندوي الذي يعرف في آن واحد أديبا وشاعراً وصفيا ومدرسا ومؤلفا.

ولد هذا الشاعر المفلق في ديسمبر ١٩١٣م بقرية "عليشجر" في ولاية بهارن وتلقى العلوم الابتدائية من أسرته، ثم التحق بالمدرسة العزيزية في "بتنة"، حتى أتم الدراسات العالية في العلوم الشرعية واللغة العربية وآدابها. ثم صار طالبا في قسم الاختصاص في ندوة العلماء، وهناك تغير مجرى حياته الأدبية، إذ وجد من الأساتذة من أمثال الشيخ محمد تقي الدين الهلالي والسيد الشاعر سليمان الندوي. ثم توظف معلما للأدب والبلاغة، ودرس أمهات الكتب كأمثال مقدمة بن خلدون، وحجة الله البالغة للشيخ ولي الله الدهلوي، وأسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القادر الجرجاني مما صار به معلماً قادراً بين الطلاب.

ميزات شعره

يمكن القول إن السيد محمد ناظم الندوي، وإن كانت أشعاره قليلة، كان من أجود الشعراء في الهند، وكان لا يقرض إلا في المناسبات النادرة. حين تثور عواطفه على مصيبة تصيب الأمة الإسلامية. يمتاز شعره بقوة التعبير وصدقه ونزاهته ويصور تصويرا بالروعة البلاغية، ورشاقة الألفاظ مملوءة بالمعاني، وقوة العاطفة الجياشة ويحلق في سماء الخيال والوصف والتصوير، ويمتاز أسلوبه بطلاقة الكلمات وبلاغة الأسلوب وروعة السجع.

كما يتضح لنا أن شعره يأتي حسب متطلبات الأغراض والموضوعات في المدح والوصف والحمد والرثاء. وهو يطرق أبواب أغراض الشعر العربي كلها. ومنها:

الوصف

إن الوصف من أروع وأجود ما قرضه الأستاذ محمد ناظم الندوي، ويأتي في طليعته وصف القلم، ووصف الحج، وأيام منى، ووصف النفس وغيره.

وصف القلم

ومن أبدع وصفه ما وصف "القلم" الذي أهدى إليه أستاذه العلامة السيد سليمان الندوي من حيدر آباد، يصوره تصويرا رائعا بديع الألفاظ والعبارات متساويان وكثير المعاني. وانبعث من أعماق نفسه أبيات هي خير هدية من أستاذه وأنها أثمن من اللؤلؤ، وأقطع من سيف صارم، وألبس الخامل لباس الذكر الرفيع، وله تأثير بالغ في إحداث الثورات والواقعات

---

[٣] . مجلة الضياء، عدد صفر ١٣٥١/ ص ٣٠.

أبادت النفوس، وله قدرة القضاء على الفتن والثورات وإيجاد التعايش السلمي ومنحه العزة والقوة ودفع الصعف والوهن.

نرى نموذجا من شعره في كتاب "القراء الراشدة" للأطفال للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي ويصور ما أجمل منها ومطلعها:

أهدى إلى سيّدي قلما رشيقا من دكن
أعلى من اللؤ لؤ وار شقا من العد الحسن
هو خير ما يهدى إلى من يبتغى الذكر الحسن
يا حبذا تلك العلى من ماجد حبر الزمن
كم حامل نالوا به ذكرا رفيعا في الوطن
كم معدم حازوا به مالا عظيما في المحن

وآخرها

تفرى الأمور بحدة ولمجده يعنو الزمن
سيف صقيل في الوعي موت ذريع بالرسن
يرمى البغاة بسهمه وبطرفه تخبو الفتن
يسقى العباد بريقه ودمائه يحي السنن[٤]

وفي وصف الحج يتفجر وجدانه ومشاعره وأحاسيسه الدينية. ونرى قوة التعبير في الألفاظ ودقة المعنى ومتانة الأسلوب كما يقول في هذه القصيدة:

إذا ما ظلام الليل يأتي لطيفها يدغدغ قلبي ناعم اللمسات
هي الحزن والسلوان والداء والشفاء وتوحى إلى الشعر كالزهرات
هي الروح والريحان والهم والأسى ومنها يفيض الشعر كالقبسات[٥]

نماذج من شعره في الحمد

رحل الأستاذ محمد ناظم الندوي إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج سنة ١٣٧٥م، وبعد أداء فريضة الحج ناجى ربه تضرعا وخفية. وابتهل إلى الله ليغفر له خطاياه ودعا الله أن يقبله منه مناسك الحج قبولا حسنا. ورجا ثوابه من الله تعالى، وكل ذالك في أسلوب رشيق يناسب روح الدعاء والابتهال. وحين يقف أمام قبر رسول الله يعروه جو نقيّ بالجمال الفني الشعري.

فقال:

بسطت يدي راجيا منك غفرانا وجنة فردوس لديك ورضوانا
وتبت إليك من جميع مآثمي فرحماك رحماك وعفوا وتحنانا

ويتضح لنا مكانته العالية أيضا في رثائه على الملك فيصل الشهيد، والأستاذ محمد الحسني. وفيما يلي رثاؤه على الملك فيصل:

---

[٤] . القراءة الراشدة، الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي، المجمع العلمي العربي، لكناؤ، الهند، ١٩٩٥م، ص – ٧٦.

[٥] . الباقة الأزهار، محمد ناظم الندوي، ص – ٧١ .

الجو مغبر الجوانب أحمر والنجم مكتئب ضئيل أكبر
بكت القلوب مع العيون تفجعا للفيصل المرحوم ساعة أخبروا

ومن أجود شعره في الرثاء ما رثى به محمد الحسني الندوي حول عنوان "الرثاء للعزيز محمد الحسني" ويرثي به الشاعر ويشبهه بالقلم المصنوع للإسلام لأنه كتاباته البديعة قد نفذت إلى العقول المظلمة العميقة وزلزلت قصور الظلم والهمجية، وأن قلمه كالسيف القاطع في الرد على الشبهات والطعن على ضد الإسلام والباطل.

ومن بعض رثائه

قلم من الإسلام فلت ريشته إذ غاب صاحبه ووارث تربته
قصفته أيدي الموت غصنا ناضرا لم تبل من ثوب الشباب جدته
ذرفت عيوني إذ فجعت بنعيه خطب لقد أدمت فؤادي صدمته[٦]

في الترحيب

وله أشعار بديعة رائعة جميلة في الترحيبات، ومنها ما رحب بجلالة الملك خالد بن عبد العزيز الحاكم السعودي، بمناسبة زيارته لباكستان عام ١٩٧٦م. وقد نشرت القصيدة في بعض الصحف بكراتشي وجمعت فيما بعد في ديوان شعره "الباقة الأزهار". ومنها:

والجو ملتمع بأبهى منظر والشمس مرسلة شعاعا مذهبا
والطير تشدو في الخمائل باكرا فرحانة سكرانة لترحبا
والدار دارك والقلوب منازل فانزل بها أنى أردت محببا
حازت قلوب المسلمين مودة فاصرف بها حيث تشاء مقربا

٣ – عبد الرحمن الكاشغري الندوي

هو صاحب أشعار جميلة جذابة في اللغة العربية. كان تركي الأصل، هاجر إلى الهند والتحق بندوة العلماء وتلقى منها العلوم العربية والإسلامية، وكان فيه غيرته على الخلافة الإسلامية المتمثلة في الحكم العثماني ومقته على قوى الاستعمار الذي هاجم رجالها على المسلمين آنذاك. وحين وصل إلى الهند بدأ يشعر أنه استطاع أن يستردّ ما فاته في بلاد الترك، وفي أثناء إقامته في ندوة العلماء استطاع أن ينهل العلوم والإبداع معاً، ولم يلبث أن تفجر ينابيع مشاعره وأشعاره. يتمثل ذالك في أشعاره عن القومية الإسلامية، وقلقه على اللغة العربية، وقد سمع أنين البائسين والملهوفين وشكوى المنكوبين خمسة عشر عاما خلال تجواله بين تركيا والهند، وهذا أيضا يتمثل في أشعاره. وأشعاره نداء باستعادة أمجاد السلف وأخذ الثأر من الناقمين على الإسلام، واسترداد الحرية والعدل للمجتمع. وديوانه "الزهرات" خير مرآة مصلقة لمشاعر المرهفة. ولما زار الأستاذ محمود خير الدين من أدباء دمشق فأقامت له "جمعية الإصلاح" حفلة تكريم في ندوة العلماء. وقال في عنوان "إلى الشامي":

قد حل بالهند ما قد حل بالشام من ضربة الغرب فاعلم أيها الشامي

---

[٦] . الباقة الأزهار، محمد ناظم الندوي، ص – ١١.

فحاضر الهند يبكي مجد غابرها وأهلها كمهاة صادها الرامي

وبعد ما قص عليه نكبة المسلمين من طغاة البرتغاليين الذين احتلوا أرض الهند، ويطلب منه أن يبلغ المسلمين في الأقطار الأخرى تحيات الهند وأهلها، وهو يقول:

يا أيها الرجل الجواب مختبرا أحوالنا ذاك حالم المسلم الدامي

إن زرت أرضا وفيها المسلمون فقل لهم سلامي وأنذرهم بالأيام

كما أنه أحسن في إبداعه الشعري حين رحب بوفد فلسطين، وقد ألقى هذه القصيدة الترحيبية على مسامع الوفد الفلسطيني في اجتماع عقده ندوة العلماء تكريما لهم في أكتوبر ١٩٣٣م. وهو يرسم فيها الوحدة الإسلامية التي تربط مسلمي الهند بفلسطين وضرورية التمسك بها، كما يعبر عن حسراته وزفراته على ما حل للشعب الفلسطيني من النكبات والنكسات. وهو يقول:

دار ألم بها كرام سادة درر المعارف بل هم دأمائها

يا دار فافتخري بهم فلأنهم رسل الحياة وأنهم نعمائها

نزلوا بمدرسة العلوم وشرفوا أبنائها فتكاملت عليائها

فاليوم أصبحنا سكارى نشوة شامية "قدسية" صهبائها

أين النفوس المهديات تحية قد زانها إخلاصها ووفائها

للوافدين الماجدين إذا أتوا أرضا يكرمهم بها علمائها[٧]

كما يوضح دور ندوة العلماء في توثيق عرى الوحدة الإسلامية بين الشعوب الإسلامية العالمية. ويقول:

يا أيها الفضلاء هذه دارنا يثنى على ضيفانها شعرائها

فالشاعرية من قديم صنعكم بالهند أيضا قد يشاد بنائها

بل ندوة العلماء منبت يحزها ينبوعها الشرار أو مينائها

دار ألم بها كرام سادة درر المعارف بل هم دأمائها

ويصف الشاعر جريدة "الضياء" في عامها الثاني، فقال:

جاءت الضياء بملأ معلوماتها وبشكلها المرموق بين لداتها

جاءت تحدث بالجوائب تارة وبما حوته غضون محتوياتها

تركت بلاد الله بعد طلوعها تتخطف الأضواء من مشكاتها

ولها دوي في الدنى لاسيما في أرض مصر لأنها بلغاتها

فدمشق عارفه بأن مجلة هندية رجحت على أخواتها

فالمجمع العلمي يشهد أنها بالهند من آي البلاغة ذاتها

ولقد رأيت جرائدا عربية تثنى على كتابها ورواتها

والشاعر الكاشغري في أشعاره ومشاعره استطاع أن يواكب العالم الإسلامي في آلامه وأحلامه، وديوانه "الزهرات" يكون بمثابة جسر متين بين الشعوب الهندية والشعوب العالمية، كما يقول مسعود عالم الندوي في مقدمة ذا الديوان "نشأ الكاشغري، بطبيعة الحال مفطوراً على حب الإسلام غيورا على بقايا أمجاد السلف، ناقما على المعتدين عدوانهم، متوجعا

---

[٧] الزهرات، عبد الرحمن الكاشغري الندوي، ص – ٥٦.

لآلام المسلمين، متمنيا لهم الفوز والاستقلال".[٨]

المصادر والمراجع

١. أبو الحسن علي الحسني الندوي، القراءة الراشدة، المجمع العلمي العربي لكناؤ، الهند، ١٩٩٥م.

٢. عبد الحي الحسني، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد، ١٩٣١م.

٣. الدكتور محمد أكرم الندوي، السيد سليمان الندوي أمير علماء الهند في عصره ، ١٩٩٨م.

٤. الدكتور شمس تبريز الندوي، تاريخ ندوة العلماء، مؤسسة الصحافة والنشر لكناؤ، ١٩٩٧م.

٥. الدكتور سعيد الرحمن الأعظمي، ندوة العلماء والثقافة الإسلامية، لكناؤ، ٢٠٠٥م.

٦. محمد ناظم الندوي، الباقة الأزهار، كراتشي، باكستان،١٩٨٨م.

٧. عبد الرحمن الكاشغري الندوي، الزهرات، لكناؤ، الهند، ١٩٨٧م.

٨. عبد الرحمن الكاشغري الندوي، الشذرات، داكا بنغلاديش، ١٩٩١م.

٩. عبد الرحمن الكاشغري الندوي، العبرات، داكا بنغلاديش، ١٩٩٤م.

١٠. مجلة الضياء، ندوة العلماء لكناؤ، عدد صفر ١٣٥١هـ.

[٨] . مقدمة الزهروات، مسعود عالم الندوي، ص – ١٨.